

## الفصل الرابع الغزالي كما فهمه الباحثون

أحس جماعة الباحثين . الذين رجعت إليهم . بهذا الذي أحسست به : من تعارض في الأفكار . وتضارب في الآراء ؛ وحاولوا معالجة ذلك . ولكنهم لم يكونوا من أمره على رأي واحد . بل ذهبوا فيه مذاهب مختلفة .

فابن طفيل<sup>(١)</sup> . الفيلسوف الأندلسي . أعياه أمر هذا التضارب . ولم يستطع أن يظفر بحل يرفعه ، فاستبقاه وسجل على الغزالي أنه متناقض . وذلك حيث يقول<sup>(٢)</sup> :

[ وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي . فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ، ويحل في آخر . ويكفر بأشياء ثم يتحللها .

ثم إن من جملة ما كفر به الفلاسفة ، في كتابه التمهات . إنكارهم لحشر الأجساد ، وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة ، ثم قال في أول كتاب الميزان : إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع .

ثم قال في كتاب «المتقذ من الضلال والمفصح بالأحوال» : إن اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية ؛ لأن أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث .

وفي كتبه من هذا النوع كثير . يراه من تصفحها وأمعن النظر فيها .

وقد اعتذر عن هذا الفعل في آخر كتاب ميزان العمل حيث وصف أن الآراء ثلاثة أقسام :

١ - رأى يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه .

٢ - ورأى يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد .

(١) المتوفى سنة ٥٨٠ هـ .

(٢) في رسالته «حى بن يقظان» ص ٦٩ طبعة دمشق الثانية .

٣ - ورأى يكون بين الإنسان وبين نفسه ، لا يطالع عليه إلا من هو شريكه في اعتقاده .

ثم قال بعد ذلك ؛ ولو لم يكن في هذه إلا ما يشككك في اعتقادك الموروث لكنني بذلك تفعل . فإن من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة ، ثم تمثل بهذا البيت :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل  
فهذه صفة تعليمة ، وأكثره إنما هو رمز وإشارة ، لا ينتفع به إلا من وقف عليها ببصيرة نفسه أولاً ، ثم سمعها منه ثانياً ؛ أو من كان معداً لفهمها فائق الفطرة ، فهو يكتفي بأيسر إشارة .  
وقد ذكر في كتاب « الجواهر »<sup>(١)</sup> أن له كتباً مضموناً بها على غير أهلها ، وأنه ضمنها صريح الحق .

ولم يصل إلى الأندلس - في علمنا - منها شيء ، بل وصلت كتبٌ يزعم بعض الناس أنها هي تلك المضمون بها ، وليس الأمر كذلك ، وتلك الكتب ، هي كتاب « المعارف العقلية » وكتاب « النفع والتسوية » و « مسائل مجموعة » وسواها .

وهذه الكتب وإن كانت فيها إشارات ، فإنها لا تتضمن عظيم زيادة في الكشف ، على ما هو ميثوث في كتبه المشهورة .

وقد يرجد في كتاب « المقصد الأسنى » ما هو أغمض مما في تلك . وقد صرح هو بأن كتاب « المقصد الأسنى » ليس مضموناً به ، فيلزم من ذلك أن هذه الكتب الراضلة ، ليست هي المضمون بها . . .

ولاشك عندنا في أن الشيخ أبا حامد ، ممن سعد السعادة القصوى ، ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة ، لكن كتبه المضمون بها المشتمة على علم المكاشفة ، لم تصل إلينا ] .

فابن طفيل يرى في الغزالي : أنه متناقض ، يقول بالرأى ، ويقول بنقيضه ، ثم يستمسك بالرأين كليهما .

ويؤيد ابن طفيل رأيه هذا ، بأن الغزالي كفر الفلاسفة في كتابه التهافت .

(١) يعنى « جواهر القرآن » .

لإنكارهم حشر الأجساد ! يعنى وهذا يستلزم قول الغزالي بحشر الأجساد .  
ثم يجعل ابن طفيل هذا الرأى طرفاً من طرفى الرأيين المتعارضين ، ويذهب  
فيتصيد الرأى الآخر من نصين فى كتابين مختلفين .

أما النص الأول فهو فى كتاب « ميزان العمل » . ومفاده أن شيوخ الصوفية  
يرون على القطع . القول بعدم حشر الأجسام .  
وأما النص الثانى فهو فى المنقذ من الضلال<sup>(١)</sup> ، ومفاده أن الغزالي آخذ بمذهب  
الصوفية .

فنتج من هذين النصين أن الغزالي منكر لحشر الأجساد ، وذلك مناقض  
لما استفيد من كتاب التهافت .  
فالغزالي إذن متناقض فى كتبه التى يقدمها إلى الجمهور : تلك هى دعوى  
ابن طفيل وهذا دليها .

غير أنى لا أوافق ابن طفيل على ما ذهب إليه : من أن الغزالي متناقض فى  
الكتب التى قدمها إلى الجمهور ، وأرى أن دليل ابن طفيل غير منتج لدعواه  
لأمرين :

الأول : أن كلمة الصوفية عند الغزالي مقولة بالاشتراك : بمعنى أنه يطلقها  
أحياناً ، ويريد بها جماعة مرفقين . هادين مهدين . ويطلقها أحياناً ، ويريد بها  
جماعة مخلطين . ضالين مضلين . فليس مدلولها عامة شيئاً واحداً يراد منها كلما  
ذكرت .

بدليل أنه بينما يثنى على الصوفية فى كتابه المنقذ ، ثناء عاطراً . ويرفعهم إلى  
درجة لا يطاولها أحد . إذا به يعقد فصلاً فى كتابه « الكشف والتبيين فى غرور  
الخلق أجمعين<sup>(٢)</sup> » . للصوفية خاصة . ينقدهم فيه ، نقداً مرّاً ، ويذكر لهم  
مثالب وعيوباً . أيضاً لا تطاول . فقد ذكر منهم تسع فرق وذمهم جميعاً ، وأطال  
القول فيهم حتى شغل من الكتاب من ص ١١٢ إلى ص ١٣٦ .

(١) وقد مر بنا فى الفصل الخاص بحياة الغزالي ص ٦٤ .

(٢) وهو كتاب مطبوع على هامش . تنبيه المغترين للشمراني .

فلا بد أن يكون الصوفية في كتابه « المنقذ » ، غير الصوفية في كتابه « الكشف والتبيين » .

ولو تنبه ابن طفيل لهذا ، لتوقف حتى يعرف ، أي الصوفية هؤلاء الذين يذكروهم الغزالي في كتابه ميزان العمل ، ويحكي عنهم أنهم يقولون بالبعث الروحاني فقط ؛ أم الذين يذكروهم في كتابه المنقذ ، أم الذين يذكروهم في كتابه الكشف والتبيين .

وقياس ابن طفيل لا ينتج إلا إذا كاننا صوفية المنقذ . لا صوفية الكشف والتبيين .

الثاني : أن الغزالي برىء صراحة من الصوفية القائلين بالبعث الروحاني ، وحكم بكفرهم في كتابه « معراج السالكين » فكان هذا « ليلاً لا يحتمل التأويل ، على أن صوفية المنقذ الذين أعلن اتباعه لهم ، ليسوا هم الصوفية الذين ذكروهم في « ميزان العمل » وحكى عنهم القول بالبعث الروحاني فقط<sup>(١)</sup> .

هذا هو دليل ابن طفيل ، فإن لم يكن له غيره على دعواه — ولم أجد له فيما قرأت — أصبح رأيه مجرد ادعاء ليس له ما يبرره .

أما ابن الصلاح<sup>(٢)</sup> فقد رأى أن يرفع هذا التناقض ، بالطعن في نسبة الكتب التي تحمل طرفاً من أطراف هذا التناقض .  
قال صاحب طبقات الشافعية الكبرى<sup>(٣)</sup> :

[ وذكر ابن الصلاح ، أن كتاب المضمون المنسوب إليه — يعني الغزالي — معاذ الله أن يكون له ، وبين سبب كونه مختلفاً موضوعاً ، والأمر كما قال ، فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى العلم القديم بالجزئيات ، ونفى الصفات ، وكل واحدة من هذه ، يكفر الغزالي قائلها ، هو وأهل السنة أجمعون ] .

(١) وبراءة الغزالي من الصوفية القائلين بالبعث الروحاني ، وحكمه بكفرهم ، وارد في الكتب التي قدمها الغزالي إلى الجمهور ؛ لأن الحديث مع ابن طفيل بشأنها . فلا يتناقض ما يأتي للغزالي في الكتب الخاصة بشأن هذا الموضوع .

(٢) المتوفى سنة ٦٤٣ هـ .

(٣) ص ١٣٢ ج ٤ .

وهذا الموقف الذى وقفه ابن الصلاح . يقوم على أساس أن الغزالي سنى . ومبادئ أهل السنة معروفة . فالكتاب الذى يعزى إلى الغزالي . ويحمل في طيه أفكاراً تخالف مذهب أهل السنة . هو كتاب مدخول على الغزالي ، ومدسوس عليه .

ويقوم أيضاً على أساس أن الغزالي قد نعم على الفلاسفة آراء معروفة سجلها في كتابه تهافت الفلاسفة . فكل كتاب يعزى إلى الغزالي ، ويحمل في طيه أفكاراً تتفق مع تلك الآراء التى نعمها هو . كتاب مدخول على الغزالي ومدسوس عليه .

فالحقيقة عند الغزالي — فيما يرى ابن الصلاح — هي الطرف الموافق لمبادئ أهل السنة ، والمعادى لآراء الفلاسفة . أما الطرف المعادى لمبادئ أهل السنة ، والموافق لمبادئ الفلاسفة . فليس من الغزالي في قليل ولا كثير . وليس له من الحقيقة نصيب عند الغزالي .

وهذا النهج الذى نهجه ابن الصلاح ، بصدد تبين الحقيقة عند الغزالي . نهج يقوم على التسامع والشهرة .

فالغزالي تعلم في المدارس التى أنشأها نظام الملك ، لتأييد مذهب أهل السنة ، وعلم في تلك المدارس . وألف كتباً لتأييد وجهة نظرها ، وألف كتباً في الرد على الفرق المناوئة لها ، وقد كان لكتب الغزالي هذه أثر بين في نشر مبادئ أهل السنة ، من ناحية ، وفي القضاء على آراء الفرق المناوئة لهم من ناحية أخرى ، فأغدقوا عليه لقب « إمام السنة وحامى حماها » فأصبح قاراً في أذهان العامة ، أن الغزالي سنى ، وأنه عدو لدود لكل من يناوئ أهل السنة ؛ وصار من السهل على كل إنسان أن يطعن في نسبة أى كتاب يعزى إليه ، متى وجد فيه ما يخالف مبادئ أهل السنة .

ولكن إذا رحنا نستقى الغزالي نفسه ، عن التسامع والشهرة هذين . وهل يصلحان أساساً تدرس شخصيات العلماء على وفقه ، وتفهم آراؤهم على مقتضاه وجدناه يقول (١) :

[ لعلك تقول : كلامك في هذا الكتاب انقسم إلى ما يطابق مذهب الصوفية ،

(١) ص ٢١٢ من كتابه « ميزان العمل » .

وإلى ما يطابق مذهب الأشعرية ، وبعض المتكلمين ولا يفهم الكلام إلا على مذهب واحد . فما الحق من هذه المذاهب ؟ فإن كان الكل حقاً فكيف يتصور هذا ؟ .

وإن كان بعضه حقاً فكيف يتصور هذا ؟ فيقال : إذا عرفت حقيقة المذهب لا تنفك قط إذ الناس فيه فريقان :

- فريق يقول : المذهب اسم مشترك لثلاث مراتب :
- إحداها : ما يتعصب له في المباحات والمناظرات .
- والأخرى : ما يسار به في التعليقات والإرشادات .
- والثالثة : ما يعتقد المرء في نفسه بما انكشف له من النظريات .
- ولكل كامل ثلاثة مذاهب بهذا الاعتبار .

### فأما المذهب بالمعنى الأول :

فهو نمط الآباء والأجداد . ومذهب المعلم . ومذهب أهل البلد الذى فيه النشوء . وذلك يختلف بالبلاد والأقطار ، ويختلف بالمعلمين .  
فن ولد في بلد المعتزلة ، أو الأشعرية ، أو الشفعية ، انغرس في نفسه منذ صباه ، التعصب له والذب عنه ، والذم لما سواه .

فيقال : هو أشعري المذهب . أو معتزلي . أو شفيعي . أو حنفي .  
ومعناه أن يتعصب له . أى ينصر عصابة المتظاهرين بالموالاتة ، ويجرى ذلك مجرى تناصر القبيلة بعضهم لبعض .

ومبدأ هذا التعصب حرص جماعة على طلب الرياسة ، باستتباع العوام ، ولا تنبث دواعى العوام . إلا يجامع يحمل على التظاهر ، فجعلت المذاهب في تفصيل الأديان جامعا ، فانقسم الناس فرقا ، وتحركت غوائل الحسد والمنافسة ، فاشتد تعصبهم ، واستحكم به تناصرهم .

وفى بعض البلاد لما اتحد المذهب . وعجز طلاب الرياسة عن الاستتباع ؛ وضعوا أمورا ، وخيلوا وجوب المخالفة فيها ، والتعصب لها ، كالعلم الأسود والعلم الأخضر . فقال قوم : الحق هو الأسود ، وقال آخرون : لا . بل الأحمر ،

وانتظم مقصود الرؤساء ، في استتباع العوام ، بذلك القدر من المخالفة . وظن العوام أن ذلك مهم ، وعرف الرؤساء الواضعون غرضهم في الوضع .

### المذهب الثاني :

ما ينطبق في الإرشاد والتعليم على من جاء مستفيداً مسترشداً ، وهذا لا يتعين على وجه واحد ، بل يختلف بحسب المسترشد<sup>(١)</sup> . فيناظر كل مسترشد بما يحتمله فهمه : فإن وقع له مسترشد تركي ، أو هندي ، أو رجل بليد جلف الطبع ؛ وعلم أنه لو ذكر له أن الله تعالى ليس ذاته في مكان ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلاً بالعالم ولا منفصلاً عنه ، لم يلبث أن ينكر وجود الله تعالى ، ويكذب به ، فينبغي أن يقرر عنده : أن الله تعالى على العرش ، وأنه يرضيه عبادة خلقه ، ويفرح بهم ويشيهم ، ويدخلهم الجنة عوضاً وجزاء .

وإن احتمل أن يذكر له ما هو الحق المبين يكشف له ، فالمذهب بهذا الاعتبار يتغير ويختلف ، ويكرن مع كل واحد على حسب ما يحتمله فهمه .

### المذهب الثالث :

ما يعتقد الرجل سرّاً بينه وبين الله عز وجل ، لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ولا يذكره إلا مع من هو شريكه ، في الاطلاع على ما اطلع ، أو بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه ويفهمه .

وذلك بأن يكون مسترشداً ذكياً ، ولم يكن قد رسخ في نفسه اعتقاد موروث ، نشأ عليه وعلى التعصب له ، ولم يكن قد انصبغ به قلبه ، انصباعاً لا يمكن محوه منه ويكون مثاله ككاغد<sup>(٢)</sup> ، كتب عليه ما غاص فيه ، ولم يمكن إزالته إلا بحرق الكاغد وخرقه . فهذا رجل فسد مزاجه ، ويشس من صلاحه ، فإن كل ما يذكر له على خلاف ما سمعه لا يقنعه ، بل يحرص على أن لا يقنع بما يذكر له ، ويحتال في دفعه . ولو أصغى غاية الإصغاء ، وانصرفت همته إلى الفهم ؛ لكان يشاك في

(١) يلاحظ أن كثيراً من كتب الغزالي إجابات على أسئلة .

(٢) قرطاس .

فهمه ، فكيف إذا كان غرضه ، أن يدفعه ولا يفهمه ؟ !  
فالسبيل مع هذا أن يسكت عنه ويترك على ما هو عليه ، فليس هو أول أعمى  
هلك بضلالتة .

فهذا طريق فريق من الناس .  
وأما الفريق الثاني وهم الأكثرون ، يقولون : المذهب واحد ، وهو المعتقد ،  
وهو الذى ينطق به تعليماً وإرشاداً ، مع كل آدمى كيفما اختلفت حاله ، وهو  
الذى يتعصب له . وهو إما مذهب الأشعرى ، أو المعتزلى ، أو الكرامى ، أو أى  
مذهب من المذاهب .

والأولون يوافقون هؤلاء ، على أنهم لو سئلوا عن المذهب ، أنه واحد أو ثلاثة ؟ !  
لم يجز أن يذكر أنه ثلاثة ، بل يجب أن يقال : إنه واحد .

وهذا يبطل تعبك بالسؤال عن المذهب ، إن كنت عاقلاً .  
فإن الناس متفقون على النطق بأن المذهب واحد ، ثم يتفقون على التعصب  
لمذهب أبيهم . أو معلمهم ، أو أهل بلدهم .

ولو ذكر ذاكر مذهبه فما منفعتك فيه ؟ ! ، ومذهب غيره يخالفه ، وليس  
مع واحد منهم معجزة : يترجح بها جانبه .

فجانب الالتفات إلى المذاهب . واطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب  
مذهب . ولا تكن فى صورة أعمى تقلد قائداً يرشدك إلى طريق ، وحوالك ألف  
مثل قائدك ، ينادون عليك : بأنه أهلكك ، وأضلك عن سواء السبيل . وستعلم فى  
عاقبة أمرك ظلم قائدك .

فلا خلاص إلا فى الاستقلال :

خذ ما تراه ، ودع شيئاً سمعت به فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل ..]

وإذا كان الأمر هو ما ذكر الغزالي ، من أن العالم قد يتعصب للمذهب أحياناً ،  
ويؤلف فى الدفاع عنه الكتب . ويعقد حلقات الدروس لشرحه وتبليانه ، ويؤله  
أن يناله أحد بسوء ، ولا يلزم من كل هذا أن يكون ذلك المذهب ، هو عقيدة  
العالم ، التى يلقى الله عليها ؛ أو أن يكون الحقيقة فى نظره ؛ أمكن أن تكون شهرة  
الغزالي بأنه سنى ، ودفاعه عن مذهب أهل السنة . على هذا النحو . فلا تصلح

أساساً لتفهم عقيدته الشخصية ، ولا لشرح الحقيقة في نظره ، ولا تصلح أساساً لرد بعض الكتب المعزوة إليه ؛ لجواز أن يكون له كتب غير الكتب التي ناصر فيها المذهب الرسمي ، دون فيها الحقيقة كما يعتقدونها وكما يراها .

لهذا لا أرى في خطة ابن الصلاح ، ما يضطر الباحث الحر ، إلى قبول وجهة نظره : من أن الحقيقة في نظر الغزالي ، هي مذهب أهل السنة ، ومن أن كتاب « المضمون به على غير أهله » مدخول على الغزالي ومدسوس عليه .

فلو كان ابن الصلاح لم يعول على الشهرة والتسامح ، ودرس الغزالي دراسة تمحيص واستقصاء :

أولاً : في حياته ، ليعرف الأطوار التي مرت به ، والعوامل التي كلفته ، وساعدت على تكوينه .

ثانياً : في كتبه ، ليتشبع بروحه ، ولتتمزج نفسه بنفسه ، حتى يعرف منهجه وطريقته .

لعرفه معرفة غير هذه المعرفة ، ولما وقع في تلك الغلطة التي وقع فيها وهي اعتباره ثلاثة المسائل التي كفر بها الغزالي الفلاسفة، إنكارهم زيادة الصفات على الذات .

ولو كان قد رجع إلى المشهور من كتبه ، بل إلى أشهرها<sup>(١)</sup> لعرف أن ثلثه المسائل « إنكارهم لحشر الأجساد » .

وما دمنا قد آهمننا ابن الصلاح ، بأنه لم يقرأ الغزالي قراءة تمحيص واستقصاء ، وما دمنا قد جوزنا أن يكون للغزالي كتب أخرى ، غير ما اشتهر بها ؛ أودعها الحقيقة كما يراها ؛ فإننا نشك في طعن ابن الصلاح في نسبة كتاب المضمون ، لجواز أن يكون واحداً من هذه الكتب ، فتكون الحقيقة في نظر الغزالي ، ما اشتمل عليها هذا الكتاب وأمثاله .

أما الدكتور زكي مبارك فإنه يرى : أن الغزالي متطور . وأجمل القول في ذلك إجمالاً ، دون أن يشرحه ويوضحه ، قال<sup>(٢)</sup> :

[ ولا يفوتنا في ختام هذا الباب ، أن نذكر القارئ بما لاحظناه ، فيما سلف

(١) أغنى كتاب التهافت .

(٢) في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » .

من اختلاف آراء الغزالي باختلاف سنه [ .

والتطور في رأبي له معنيان :

الأول : أن يكون العالم صاعداً في معارج الرقي الفكرى ، ومدارج الكمال العلمى . من درجة إلى درجة . ومن حال إلى حال .

ولا شك أن الغزالي كان كذلك ، فقد كان تلميذاً ، فتلميذاً ناهياً ، فعلماً مساعداً ، فعلماً ذائع الصيت . فناقداً قوى الحججة . يفرى أديم الآراء ، ويهتك أستارها . فؤولفاً مكثراً ، أوسع العالم بحثاً وتأليفاً .

ولكن التطور بهذا المعنى . لا يحل لنا الإشكال الذى نعجله ، فإن للغزالي كتباً تحوى آراء متضاربة . لا يمكن التوفيق بينها ، كإنكاره زيادة الصفات ، وإثباتها . وإنكار الجواهر الفرد وإثباته .

وهو لم ينفص يده من واحد من كتبه ، بل يستمسك بها جميعاً ، إلى آخر لحظة في حياته .

وبيان ذلك :

(١) قسم الغزالي العلوم في كتابه « جواهر القرآن<sup>(١)</sup> » . إلى علوم هي قشور . وعلوم هي لباب ، وجعل في القشور النحو والتجويد وأضرابهما . وجعل علوم اللباب طبقتين ، إحداهما أقل قيمة من الأخرى ، وجعل الأقل قيمة ثلاثة أقسام :

قسم أول هو معرفة قصص القرآن .

وقسم ثان هو<sup>(٢)</sup> محاجة الكفار ومجادلتهم . ومنه يتشعب علم الكلام ، قال : [ المقصود لرد الضلالات والبدع ، وإزالة الشبهات ، ويتكفل به المتكلمون . وهذا العلم قد شرحناه على طبقتين سمينا الطبقة القريبة منهما « الرسالة القدسية » ، والطبقة التى فوقها « الاقتصاد في الاعتقاد » .

ومقصود هذا العلم حراسة عقيدة العوام من تشويش المبتدعة . . . . . وبجنسه يتعلق الكتاب الذى أوردناه في تهافت الفلاسفة [ .

(١) ص ١٨

(٢) ص ٢١

وهذا النص يفيد أهمية علم الكلام في نظره ؛ لأنه اعتبره في علوم اللباب .  
وفيد تمسكه بأرائه التي وردت في كتبه المؤلفة فيه ، وعلى الأخص كتابه  
« الرسالة القدسية » و « الاقتصاد في الاعتقاد » .

وفيد تمسكه بكتاب التهافت وبالآراء التي وردت فيه .  
وكتاب جواهر القرآن الذي ورد فيه هذا النص ، مؤلف بعد الإحياء وبعد  
أن اهتدى الغزالي إلى نظرية الكشف الصوفية ، التي وصل إلى اليقين العلمي عن  
طريقها .

( ب ) أحال الغزالي في كتابه المقصد الأسنى ، في شرح أسماء الله الحسنى <sup>(١)</sup>  
على كتابه تهافت الفلاسفة ؛ في موضوع الصفات الإلهية .

وكتاب المقصد الأسنى هذا مؤلف بعد الإحياء .  
وأحال الغزالي في كتابه « الاقتصاد في الاعتقاد » الذي هو صفة كتبه الكلامية  
في مواضع مختلفة منه على كتاب التهافت .

وأحال في منهاج العابدين <sup>(٢)</sup> - وهو آخر مؤلف له على الإطلاق - على  
كتبه الكلامية .

وكتابه الدرّة الفاخرة متأخر عن الإحياء <sup>(٣)</sup> .

وأما كتبه المضمون بها ، فقد ألفها في أخريات حياته ؛ حينما يتس من وجود  
تلامذة له يتلقونها شفاهاً .

وبين كتبه الكلامية : الاقتصاد ، والتهافت ، والدرّة الفاخرة ، في طرف ،  
وبين كتبه المضمون بها على غير أهلها في طرف آخر وقع التعارض .

المعنى الثاني : من معاني التطور . أن تلوح للعالم وجهة نظر خاصة ، ثم  
بعد اتساع دائرة أفكاره . ونضوج معارفه ، يرى خطأها ، فينقص يده منها ،  
ويستمسك بنقيضها .

وهذا المعنى هو الذي كان يمكن أن يحل لنا الإشكال ، وأن يريحنا من ذلك

( ١ ) ص ٧٩ .

( ٢ ) ص ٤٢ .

( ٣ ) انظر الدرّة ص ١٢ ، ١٦ ، ١٧ .

القلق النفسى ، والاضطراب الفكرى ، حول الغزالي ، وحول تحديد الحقيقة في نظره . لولا أن الغزالي لم ينفذ يده من واحد من كتبه ، التي كانت طرفاً في هذا التعارض .

فإلى أى المعنيين قصد الدكتور زكى ؟؟ إن كان قصد إلى المعنى الأولى فلسنا نخالفه فيه ، غير أنه لا يحل الإشكال .

وإن كان قد قصد إلى المعنى الثانى ، فليس له من الأدلة ما يؤيد وجهة نظره ، بل على العكس النصوص شاهدة ضده ، وذاهبة إلى غير ما ذهب إليه<sup>(١)</sup> .

(١) ومن عرض للغزالي بالدراسة ، ابن رشد ، وقد عاب عليه تمكينه الجمهور من الفلسفة ، بتبسيط مسائلها ، وتذليل صعوباتها . فهل يعنى ابن رشد بهذا النقد ، مؤلفات الغزالي التى أودعها لباب الحقيقة وخالص المعرفة ؟ !

إن كان ابن رشد يقصد ذلك ، فما أنصف الغزالي ؛ لأن الغزالي حاط هذه المؤلفات ، بضروب من الإخفاء والكتمان ، فإذا كانت مع ذلك ، ورغم إرادته ، قد تربت إلى أيدي الجمهور ، فليس له في ذلك حيلة ، وليس هو المعلوم عليه .

وإن كان ابن رشد ، يعنى مؤلفات الغزالي ، التى رد فيها على الفلاسفة ، أعنى كتابه تهافت الفلاسفة ، ومقدمته مقاصد الفلاسفة .

فالغزالي له في هذا وجهة نظر ، فإنه لما ألف في نقد مذهب التعليمية ، كتاباً ، ككتاب مقاصد الفلاسفة ، ليكون مقدمة الرد والمناقشة ، عاب عليه أهل عصره ذلك ، وقالوا : إنك أبدت مذهبهم ، بما لو حاولوه لعجزوا عنه ، فقال إنما أردت ألا أتهم بأنى أقدم على الرد عليهم ، قبل تفهم مذهبهم ، فأردت أن أبرهن لهم ولغيرهم ، على أنى فاهم لمذهبهم فهماً ، ربما يعلو على أفهامهم .

وأيضاً قال : إنما يخشى من هذا ، لو لم تكن شبهتهم قد انتشرت ، أما وقد انتشرت ، فلن يحصل من تأليف هذا ما يخافه المتحرجون .

فكذلك يمكن أن يقال هنا ، وإن لم يصرح الغزالي بذلك : إنه ألف كتاب « مقاصد الفلاسفة » قبل أن يرد عليهم بكتاب « التهافت » ، ليبرهن لهم على أنه لن يناقش عن جهالة ، وإنما هو فاهم لآرائهم فهماً صحيحاً .

وأيضاً لن يكون تأليفه هذا عاملاً من عوامل انتشار الفلسفة ، لأنها كانت منتشرة إذ ذاك .

هذا ما يمكن أن يقوله الغزالي ، ولكن الدعوى الثانية غير مسلمة ، لأن الغزالي بسط المسائل الفلسفية ، وسهل أسلوبها ، بحيث يمكن من لم يكن قادراً على تفهيمها من تأليف غيره ، أن يفهمها من تأليفه .

غير أن الغزالي حين ألف كتاب المقاصد ، كان في نشوة تيه وغرور ، كان يبنى ذبوع الصيت ، وانتشار الصعمة ، وهو يستطيع أن ينال من ذلك أقصى ما ينال ، إذا امتدت تأليفه إلى =

.....

=أيدى الجميع ، وقرأها وشهد له بسببها العام والخاص ، وفي سهولة التأليف وتبسيط المسائل ما يساعد على ذلك فهو لم يكن يتم في تلك الفترة بما أهم له ابن رشد من عدم تمكن الجمهور من الآراء الدقيقة .

ثم هل كان يقف ابن رشد من النزالي هذا الموقف ، فيكلف نفسه الرد عليه ، وتفنيد كتاب التهافت مسألة مسألة ، وتبسيط عبارته كما تبسط النزالي ، فيضيف إلى المعاني الفلسفية ، التي ذكرها النزالي في التهافت ، معاني أخرى ، أضطره إليها الرد ، لو كان يعلم .

أن النزالي استبقى التهافت ليقدمه لطبقة المتكلمين ، الذين يرى أن اعتقادهم هو اعتقاد العامة لا يزيدون عليه إلا معرفة دليل العقيدة ؛ ليبغضهم ، ويبغض من وراءهم من العامة ، في الفلسفة : مع أن هذا نفسه هو رأى ابن رشد وإن لم يتخذ مثل ذلك العمل وسيلة إليه .

وأن النزالي على مذهبه : من أن الحقيقة في صورتها الخاصة ، يجب إخفاؤها عن الجماهير ، الذين لا يطبقون فهمها ، ويجب أن يقدم إليهم ما يليق بهم .

أظن أن لو كان ابن رشد يعلم من النزالي ذلك ، لكان له معه موقف غيره .